التوظيف الدلالي للمرايا في ومضات عصام الشريف

بسام جميدة

كاتب وصحفي سوري

يحاول الكاتب المصري عصام الشريف أن ينسج من القضايا الإنسانية والاجتماعية والسياسية ومن مفردات حياته اليومية قصصاً وامضه يضيء بها هذا النوع من الفنون القصصية التي تحاكي عقلية المتلقي بطريقة سردية سريعة أجادها لحياكة مفرداتها بأناقة تامة وتكثيف مدهش وعميق، حيث يتطلب الخطاب السردي أن يكون بعدد من الضمائر أحسن استخدام الكثير منها لدلالات مضمون النص ليكون مؤثرا في نفسية وعقلية المتلقي ويكون بمثابة بصمة خاصة للكاتب الذي امتاز بإجادته لتوظيف الكثير من الدلالات في مجموعته الممتعة "أطياف ومرايا" مازجا الخيال بالواقعية بأسلوب لغوي يجعلك تستحضر الصورة من الزاوية التي يلتقط الفكرة من خلالها...

ولأن الحكاية في الومضة القصصية لا تحتمل التواجد هنا بتفاصيلها، فأنها تعبر عن نفسها بعمق كبير عندما نجد الكاتب يحسن اجتزاء الحدث الأعمق منها وفق رؤيته الإنسانية..

لن أتعمق كثيرا بكل تفاصيل ومضات الكتاب وهي كثيرة، بل سأتناول جزءاً مهما منها وهي المرايا والأطياف التي تعتبر معادل رمزي للحياة وللنص الومضي.

فالمرآة بالمعنى الحقيقي لها هي انعكاس لصورة ماثلة أمامها، والطيف هو ما يمر في الذاكرة من ذكرى لشخص، ويأتي الخيال ليشكل ثلاثية ترتكز عليها ومضات هذا الفصل من كتاب القاص عصام الشريف الذي لم يكن بالتأكيد هو أول من أجاد توظيف المرايا في قصصه السردية ليقول ما يريد قوله في ومضات خاطفة، لكنني أجزم أنه واحد من الذين أبدعوا في هذا التوظيف بالشكل الأمثل والمعبر عندما أفرد فصلا كاملا للمرايا والأطياف في مجموعته التي حملت عنوان الفصل (أطياف ومرايا) ودون فيها /23/ ومضة قصصية جاءت معظمها بصيغة ضمير المتكلم الذي لبى تطلعات الكاتب لتدوين ما يدور في خلده من تعابير مرهفة لقصص واقعية يزخر بها الواقع الذي يحيط به وبنا.

وليس غريبا أن يوظف الكاتب التطابق في العنوان بين الأطياف والمرايا بشكل ينم عن وجود لغة قوية ومتماسكة يستطيع أن يسير بها حيث يريد ليكوّن لنا حصيلة وافرة من المتعة القصصية المبنية على وجود الحدث الظاهر حينا والمخفي في أحيان كثيرة ليفتح لنا الباب على مصراعيه للتأويل

والاستنتاج والقراءة العميقة لومضاته الكثيرة في مجموعته القصصية الأولى.

ولطالما استخدم الكاتب ضميريّ المتكلم والغائب في اغلب ومضاته ليطل علينا من خلالها كراوٍ صريح وحيادي ومندمج لا يخفي دهشته مما يراه في خياله، والأطياف التي تتبدى له وفي المرآة التي تكون صريحة أكثر، فهو بذلك يعبر عن حالات وجع تداهمه كلما نظر فيها ويعبر عنها بومضته **"ندبة[6]"**:

وقفَ يتأملُ وجهَه في المرآةِ، تلك الندبةُ كيف انتقلت من.. القلبِ؟!

وبطريقة استفهامية تفرز الوجع الكامن فيه، ويتابع بنفس الصيغة ليدون لنا ومضة أخرى تحاكي النفس باستغراب واستفهام في ومضته **"بقية[7]"**

درت حول المرآة أفتش عن بقيتي: "ءأنا معتم هكذا؟!""

وغالبا ما يكون السرد بضمير الغائب يعكس اقتراباً من المروي حتى يكون المتلقي في حالة من الاشتباك والتصديق للنص المسرود إلى درجة التفاعل معه في ومضة **"اكتشافٌ[8]"**

---

[6] عصام الشريف. أطياف ومرايا. الكتاب الرابع في سلسلة ومضات قصصية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، مايو 2015. ص 8.

[7] المرجع السابق، ص 10.

[8] المرجع السابق، ص 8.

باغته جواب ظلّه "أنا وهمٌ"، جري إلى المرآة، أذهلَه أنه أخترقها..

حيث تأتي الصورة هنا فيها الكثير من الغرابة وأقرب إلى الفانتازيا الخيالية... فيما يجنح بنصه "**تشابهٌ**[9]"

همسَ لنفسهِ في المرآةِ: "هذا الوجهُ الذي يتابعني يشبهني كثيرًا.. من الظاهرِ فقط.

إلى الاستغراب أكثر مما في أعماقه عما هو ظاهر في وجهه، مشيرا بلغة مخفية الى تصرفاته، مستخدما المرآة لتقول ما لا يريد أن يقوله في شخصية الومضة مستفيدا مما هو متاح في ضمير الغائب من تعابير وتناقضات في حياة الشخصية، كما يمنحه فسحة من تدوين قول الشخصية أو حوارها ليرسم صورة الصراع وانعكاساته بسرد متدرج وجذاب كما هو في باقي ومضات الكتاب التي يمكن مطالعتها في أكثر من فصل، حيث يمتزج السرد في النص بالرمزية بمواءمة جميلة سواء بالإشارة أو التعبير بقصد الالتزام بالأطر الأخلاقية التي يريد النظر إليها أو مواكبة الواقع من خلالها أو رسم ظاهرة تحوم بيننا بكلمات مدهشة عبر هذه الومضة "**رحلةٌ**[10]"

قطع مسافة عمره دون أن يرى مرة واحدة روحه.

---

[9] المرجع نفسه، ص 8.

[10] المرجع نفسه، ص 8.

فيما يستخدم هنا ضمير المتكلم للتعبير عن هذه الحالة في ومضة **"رعبٌ[11]"**

أرعبني ذاك الوجه ينظرُ إليّ، لم أعد أذكرُ صاحبه."...

وينتقل الكاتب بخفة بين ضمائر ومضاته ليحدثنا هنا بضمير المتكلم في ومضته **"جلاء[12]"**

جلوت المرآة جيدا، تمعنت في الصورة، لا زالت باهتة.

دون مواربة عن شخصية موجودة تحاول تلميع ذاتها عبر المرآة ولكن دون جدوى لأن تلميع الظاهر لا يخفي الباطن مطلقاً.

ويترك الكاتب مراياه جانباً بعد أن التقط منها تلك الصور التي دونها، ليذهب باحثا عن أطياف راودته وخيالات تمر به في ومضته **"مشاطرة[13]"**

آتاني طيفها في الصباح، شاطرني قهوتي، ابتسم ثم انصرف، لم أشعر بعدها بمرارة قهوتي.

ليعبر لنا بصورة رومانسية عن مرور طيف من يحب بخياله ليقاسمه قهوة الصباح التي تكررت مرتين في الومضة إنما دون شعور بثقل مرورها على المتلقي...

---

[11] المرجع نفسه، ص 9.

[12] المرجع نفسه، ص 10.

[13] المرجع نفسه، ص 9.

ويتابع الشريف العزف على وتر الرومانسية الحزينة وهو يكتب ومضة **"افتقاد[14]"**

الآن يحاصرني طيفها..في صحوي ونومي،: "آه لو ألمسه".

ليجسد صورة من الوله التي تعيشها الشخصية في ومضته المروية بضميريّ المتكلم والغائب، ضمن تضاد محبب للقارئ "صحوي ونومي"، ويتابع بجملة مروية "آه لو ألمسه"..ولم يكتف بتلك الومضة التي يخاطب بها طيف من يحب ليدون لنا ومضته **"شاهدٌ[15]"**

":رأيتُك بعينيّ"، .. قَبّلها ببرودٍ كالمعتذر، تمتمَ لنفسه :"..وكم من مراتٍ..ولم يرني أحدٌ..؟."

التي يستذكر بها من يحب بقبلة اعتذار لكنه مع تلك القبلة يستذكر قبلات غيرها كان هو نفسه شاهدا عليها...

وعبر ومضة **"شيطان[16]"**

فجاءتني صورتها في خيالي، مستسلمة وأنا أنهرها، عندما كنت مستسلما لشيطاني بينما ينهرني.

---

[14] المرجع نفسه، ص 10.

[15] المرجع نفسه، ص 11.

[16] المرجع نفسه، ص 9.

يضرب لنا موعدا مع خياله وهو يجسد لحظة تخيل لحبيبته وهي قادمة إليه مستسلمة وينهرها، في ذات اللحظة التي كان هو مستسلما لشيطانه الذي ينهره بذات الوقت يريد منه أن يواصل حلمه الشيطاني، وجاء التكرار هنا مفيدا في تطابق واضح وتوظيف جميل لإيراد المعنى الصحيح للومضة "مستسلمة أنهرها ومستسلما ينهرني" ...

وينتقل الكاتب إلى لحظة من لحظات التخيل والإبداع عبر ومضة تعري الحقيقة وتفضح المشاعر وبعنوان لا يقل ذكاء عن لحظة السرد في جسد الومضة **"غطاء[17]"**

:"عري.." صرخ بها، أفقت من تأملي للوحة، :"أنها الحقيقة" رددت لنفسي، انصرفت بينما وجهه يزداد عبوسا.

فيما تتجلى روعة الكاتب في اقتناص اللحظة بأدق تعابيرها وهو يجسد حالة الاغتيال لضحيته بدم بارد والتي هي في الحقيقة من اغتالته بنظرة المجني عليه عبر ومضة **"اغتيال[18]"**

اعتدت نظرة ضحاياي الشاردة، هذه الضحية قتلتني نظرتها بينما أغتال حلمها. "..

[17] المرجع نفسه، ص 9.

[18] المرجع نفسه، ص 9.

ويوظف الكاتب عصام شريف، كما فعل في المرايا، موضوع الظلال بطريقة مشوقة لتكون متكئاً مريحا لانطلاقة أفكاره عبر ومضات تجسد حالات كثيرة تجسد قلق الراوي ومنها ومضة **"خيانة[19]"**

في الشوارع الخالية حاصرتني ظلال أنكرتها كلها إلا ..ظلي."

وبالمقابل يجد في نقيض الظلال حالة السراب لتفيض علينا بدفق من التعابير والجمل المروية على لسان الشخصية لتكون حالة مشابهة للسراب **"أنتَ وهمٌ، حسنًا ..لتظلّ كذلكَ"** وهو يسير مع العنوان **"خُطوةٌ.. خُطوةٌ[20]"**

أحاصرُ السرابَ بعيدًا عن واحتي :"أنتَ وهمٌ، حسنًا ..لتظلّ كذلكَ"، ُثم أخطو خطوة مع مسير الضوءِ.. "..

كل هذه الصور السردية والتنقل فيما بينها والتكثيف الواضح في الصور الملتقطة بريشة فنان مبدع والممزوجة بالرمز تأتي لتعبر عن الشكل الظاهري للمروي ورسالة ضمنية للمتلقي ليدخل في الصراع مع حدث الومضة وحكايتها في حبكة مثيرة ومحكمة في البنية السردية تتضمن إشارات تصور لحظات فارقة استطاع المدهش عصام الشريف أن يلتقطها من زوايا متعددة أظهرت لنا مقدرته الفائقة في تدوين الحدث ورؤية ما لم يستطع غيره أن يراه بأسلوبه المتفرد والتأمل والتعمق في روح الأشياء

[19] المرجع نفسه، ص 11.

[20] المرجع نفسه، ص 11.

والأشخاص والكون وحتى في الجماد مما حوله.. والاندماج والصراع فيها ومعها لخلق ومضة طاغية ومعبرة...

كل هذا لمسناه في ومضات الكاتب عصام الشريف التي يزخر بها كتابه المفعم بالجدل والمحرك لعقلية المتلقي.